بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة

أورد الجاحظ فى سياق خبر ضمنه كتابه «البيان والتبيين» مناظرة بين المكيّين والبصريّين، تشير إلى رأيه فى معنى الفصاحة، فقال: حدثنى أبو سعيد عبد الكريم بن روح، قال: قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة، فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم.

فكأن الفصاحة فى رأى الجاحظ تكمن فى اللفظ، وفى قربها من استعمال القرآن الكريم، وفى بعدها عن الدخيل والغريب — كما يستبين لنا من آرائه فى مواضع أخرى.

وقد أنكر بعض البلاغيين فى مراحل لاحقة أن تكون الفصاحة فى الألفاظ المفردة، بل داخل السياق، ومثلما اختلفت آراؤهم حول مفهوم الفصاحة اختلفوا حول علاقتها بالبلاغة والبيان، وكثيراً ماعدت الفصاحة مرادفة للبلاغة.

وكانت الفصاحة فى كتابات البلاغيين المتأخرين تحتل مقدمة كتبهم فى البلاغة، يشرحون فيها أركان فصاحة المفرد، وفصاحة الكلام كتابة ونطقا. وفى هذه

الأركان تتداخل الفصاحة بقوة مع العلوم اللغوية بفروعها الحديثة المختلفة ، وتتداخل مع فروع من علوم البلاغة ، وتتصل بعلم النفس الحديث ، وعلوم أخرى كثيرة ، الأمر الذى لفت بشدة أنظار الباحثين المحدثين إلى شذوذ وضع الفصاحة مقدمة سريعة فى صدور الكتب البلاغية ، وملامسة علاقاتها باللغة والبلاغة . ولكن أحداً لم ينشط لتصحيح وضع الفصاحة والاستفادة من العلوم اللغوية الحديثة فى تشريح معنى الفصاحة ، وتحديد دلالاتها ، والانتفاع بعلم النفس الحديث وعلم وظائف الأعضاء فى دراسة مفهوم الفصاحة بالنسبة للمتكلم ، وتحديد عيوب النطق والكلام .

وأحس محمد على رزق الخفاجى هذا الضيم الذى تعانيه الفصاحة ، منذ كتب فى رسالته الجامعية الأولى التى نال بها درجة الماجستير عن (مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ) ، وحلل مفهوم الفصاحة عند هذا الكاتب العظيم الذى كان أول من أشار إلى بعض مدلولات الفصاحة وصلتها بالبلاغة ، ثم عاين ما كتبه البلاغيون المتأخرون ، وما خصوا به الفصاحة من قدر ضئيل فى صدور كتبهم ، مما لا يفى بحقها ، ولا يطلع الباحثين على عمق دلالاتها ، ومن هذه تجرد للكتابة عن الفصاحة بهدف الدعوة إلى فصلها عن كتب البلاغة ، وجعلها علما مستقلا بذاته ، له موضوعه وأسسه التى يقوم عليها ، وتكمن فى دراسة أصوله أهداف كثيرة أهمها : إصلاح اللغة نطقا وكتابة وسماعا .

وهذا العلم لا يصح أن يكون ذيلا للبلاغة لأن موضوعه ليس بلاغيا صرفا ، ولا يصح أن يكون ذيلا لعلوم اللغة ، لأن موضوعه ليس لغويا صرفا ، ولكنه ذو كيان خاص يتصل — شأن أى علم آخر — بعلوم البلاغة ، والعلوم اللغوية ، وعلم النفس ، والإجتماع ، والفيزياء ، وعلم وظائف الأعضاء .

وقد بدأ يتحسس خطواته الأولى فى البحث عندما كنت فى غيبة عن مصر ، تحت إشراف الزميل الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام ، ثم عدت وسافر

الدكتور سلام ، ومايزال البحث فى نقطة البداية ، فلقيت منى فكرته كل تشجيع فانطلق فى مثابرة وصبر على طريق السداد ، حتى وجدت أن البحث قد اكتملت شخصيته ، وأصبح قادراً على النهوض بدعوة صاحبه إلى تأسيس علم الفصاحة العربية ، ليأخذ مكانه بين علومنا اللغوية والبلاغية ، فنال به صاحبه درجة الدكتوراه فى الآداب بمرتبة الشرف الأولى ، ونال معها إعجاب لجنة الحكم بما فى البحث من عمق فكرة ، وأصالة رأى ، وحسن فهم وتحليل للنصوص .

وهانحن أولاء نقدمه لقراء العربية فى كل مكان ليروا فيه رأيهم ، ولاأشك أنهم سوف يقدرون حق القدر جهد صاحبه الذى يستحق فى رأيى أجرى الاجتهاد والإصابة ، والله نسأل أن ينفع به ويبارك فى عمله ؟

محمد مصطفى هدارة
أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

قصر الصفا — رمل الإسكندرية فى ٩ شوال ١٣٩٩
أول سبتمبر ١٩٧٩

obeikandl.com

تمهيد

معالجة الظواهر العلمية بالرصد والتفسير والتقويم أمر يجمع العلماء على ثقل تبعاته وكثرتها ، ويقدرون ما قد يلقاه الباحثون من معاناة عندما يواجهون الخلط والتقدير القاصر والفهم المضطرب لظاهرة ما ، وعندما تتشعب الظاهرة إلى قنوات صغيرة تمتزج فيها الأخلاط .

والفصاحة من حيث هى ظاهرة علمية متصلة باللغة لا تختلف فى هذا الشأن عن مثيلاتها من الظواهر الأخرى ، فلقد أصابها ضيم لا نتردد فى وصفه بأنه كبير ، واختلفت تصورات عدد من دارسيها عنها ، كما خلط فريق بين جوانبها ، كل هذا وغيره قد ساعد على تشتيت موضوعاتها بين البلاغيين واللغويين . وبينما يضع البلاغيون المتأخرون الفصاحة مقدمة فى كتبهم ليحددوا بها مفهوم البلاغة نرى اللغويين يصنفون الفصيح فى دروسهم ويعدونه قضية لغوية ، فالفصاحة فى كتب القدماء مشتتة بين كتب البلاغيين واللغويين .

ولا يعنى هذا أننا نصف كل الدراسات القديمة التى تناولت الفصاحة بالقصور والخلط — معاذ الله — فهناك جهود يستوجب الإشادة بها ، ولقد نوهنا وأشدنا بجهود وآراء كثيرة فى ثنايا الكتاب ، كما أن تراثنا يشهد الفصاحة كانت درسا قديما بغض النظر عما فيه من ملاحظات .

من أجل ذلك وغيره اتخذنا الفصاحة موضوعا نقيم عليه دراستنا ، وكنا نتصور فى بداية الأمر أن دراسة الفصاحة ستكون محصورة بين الدراسات البلاغية واللغوية ، لكننا لم نكد نأخذ فى معالجة الموضوع حتى وجدنا أنفسنا مدفوعين

إلى أن نوسع من مجالاتنا ، وإلى اتخاذ وسائل جديدة يمكن أن تسدى إلينا النفع فى دراستنا ، فهناك جوانب من الفصاحة يجب أن تفسر على ضوء ما أسفرت عنه علوم العصر مثل : علم النفس ، وعلم الاصوات اللغوية ، وعلم الاجتماع ، وعلم الفيزياء ، وعلم الدلالة ، وعلم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، هذا بالاضافة إلى ما ترتكز عليه دراستنا من علو عريقة كالنحو والصرف والبلاغة والأدب ، ولقد حاولنا أن يكون تفسيرنا لجوانب الفصاحة تفسيرا علميا بقدر ما يتاح لنا من وسائل علمية وفنية ، وبقدر تلك النتائج التى توصلت إليها هذه العلوم ، وبقدر تعلقها بدراستنا . ونحن ندرك أن أى تفسير عصرى وأية دعوة إلى التجديد إنما تقوم على أساس متين من التراث القديم ، ذلك منهج قويم قد رسمه لنا أستاذنا المرحوم أمين الخولى فى قوله : (إن أول التجديد هو قتل القديم بحثاً) .

ودراستنا للفصاحة قد انطلقت مما قد استقر عنها عند الأقدمين ، أى أننا قد ارتضينا ما أورده القزوينى عن الفصاحة ليكون الأساس الذى ننطلق منه لدراسة الفصاحة ، وذلك لأن القزوينى من البلاغيين المتأخرين الذين قد استقرت المصطلحات على أيديهم ، كما أن ما أورده من قضايا وموضوعات بلاغية يعد ثمرة جهود البلاغيين السابقين . كما أن إضافات شراح التلخيص قد دارت فى الإطار الذى حدد القزوينى معالمه . وهذا لا يعنى أننا قد توقفنا عند القزوينى ، وإنما قد اتخذنا آراءه المعيار الذى نتعرف به على جهود سابقيه ولاحقيه . كما أن دراستنا للفصاحة دراسة طولية من الرأس إلى القدم ، ولقد تتبعنا ملامح الظاهرة فى أصولها الأولى من العصر الجاهلى حتى عصرنا هذا الذى نعيش فيه ، ولقد حاولنا فى دراستنا هذه أن نرى اللغة من الأدب ، والأدب من اللغة ، أى نوطد الصلة بين الذوق واللغة من ناحية ، والعقل والأدب من ناحية أخرى ، فنحن ما زلنا نرى أن علوم اللغة تدرس لذاتها ، وكأنها ترف علمى ، بينها حدود فاصلة ، ومناطق حرام . بينما نجد الدراسات الأسلوبية فى اللغات الأوربية قد وصلت إلى درجة كبيرة ومزجت بين علوم اللغة أو أوصافها .

وقد لاح لنا ونحن ندرس جوانب الفصاحة أن تناثرها بين علوم مختلفة يجب أن تبرز نهايته ، فيجمع شتاتها ، وترأب شعابها ليكون لها كيان مستقل، وقوام ظاهر ، تستطيع بهما أن تتبوأ مكانتها التى تتلاءم معها كظاهرة علمية ، أو كإطار تعالج من خلاله اللغة فى جانب أو أكثر من جوانبها ، بل لا نبالغ إذا دعونا إلى جعلها علما مستقلا كغيرها من العلوم اللغوية الأخرى التى استقلت وبرزت، وفى رأينا أن الفصاحة لها مقومات كثيرة تصبو إلى جعلها علما له موضوعاته وأهدافه وأسسه التى يقوم عليها ، ولقد حاولنا أن نرسم ملامح هذا العلم فى الدعوة التى سجلناها فى نهاية هذا الكتاب ، وهذا العلم ليس تكرارا لما تضمنته العلوم اللغوية الأخرى كالبلاغة والنحو والصرف والصوتيات وعلم اللغة ، وهذا لا يمنع من استعانته بها لتفسير بعض جوانبه ، والفصاحة كما بدت لنا من خلال دراستنا لها ما يزكيها لتكون علما ، ومجالاتها أكثر وأوسع من مجالات بعض العلوم التى استقلت وبرزت ، بل اننا لا نبالغ إذا قلنا : إن فصاحة المتكلم وهى أحد أقسام الفصاحة الثلاث — يمكن أن يكون علما مستقلا بذاته ، ويستطيع القارىء أن يدرك المجالات التى تتناولها فصاحة المتكلم ، هذا بالإضافة إلى الموضوعات العديدة التى تضمها فصاحة المفرد .

وشعورنا القوى بما للفصاحة من أثر يمكن أن تؤديه كعلم مستقل — قد دفعنا إلى تغيير عنوان هذه الدراسة فلقد كان عنوانها : (مفاهيم الفصاحة العربية) فصارت (علم الفصاحة العربية) . وهذا الكتاب مقدمة فى هذا العلم للقارىء العربى ، وهو خطوة فى طريق الفصاحة ، كما أننا مزجنا فيه بين الجانبين النظرى والتطبيقى ، لكننا لم نلجأ إلى الإفاضة فى الجانب التطبيقى لأن حدوده لا نهاية لها ، وعلى الباحث أن يرسم الخطى ، ويوضح معالم الطريق ، ويترك الجانب التطبيقى لمن أراد أن يسلك هاتيك الدروب . ومن عمل الباحث أيضا أن يكون

هدفه الكشف عن حقائق علمية ، لكن الانتفاع بتلك الحقائق أهداف تربوية قد تولدت من الأهداف العلمية التى كشف عنها الباحثون .

ونحن ندرك أن الاهتمام بأى علم من العلوم إنما يرتبط بملابسات تتصل بالمريدين أو القائمين عليه ، كما أن درجة تقبل أى علم من العلوم تتعلق بالحاجة إليه ، وعلم الفصاحة الذى ندعوه إليه يمكن أن يجد الاهتمام الذى نرجوه له ، والتقبل من متفهميه . ولا نبالغ إذا قلنا : إننا فى حاجة إلى إطار ومنهج مناسب لوصف أو دراسة اللغة ، وعلم الفصاحة بمجالاته وموضوعاته أنسب شىء إلى ذلك .

لقد ورد فى تراثنا كلمة علم مضافة إلى الفصاحة ، ونخص بالذكر الشيخ عبد القاهر الجرجانى الذى ذكر (علم الفصاحة) مرات ومرات ، لكن عبد القاهر الجرجانى لم يكن يعنى بقوله (علم الفصاحة) ما تدعو إليه هنا ، وإنما كان يقصد بذلك (علم البلاغة) ، ولقد ذكرنا ذلك فى ثنايا هذا الكتاب وأوضحنا أن عبد القاهر يستخدم لفظتى فصاحة وبلاغة بمعنى واحد ، فعلم الفصاحة الذى يردده عبد القاهر الجرجانى لا صلة له بعلم الفصاحة الذى ندعو إليه ، ونرجو له أن يكشف عن حقائق علمية يمكن الاستفادة بها فى إصلاح لغتنا العربية نطقا وكتابة وسماعا .

كما أننا ندرك أن نتائج العلوم اللغوية أو العلوم الإنسانية عامة ليست صارمة محددة تمام التحديد كنتائج العلوم التجريبية مثلا ، لكنها لا تخلو من قدر من النسبية ، ونتائج علم الفصاحة لا تختلف عن نتائج العلوم اللغوية الأخرى ، وذلك على الرغم من استعانة الفصاحة ببعض العلوم التجريبية مثل علم الفيزياء وعلم الأصوات التجريبى .

وإذا كان إحساسنا بالمسئولية قد تضاعف ونحن ندرس الفصاحة بهذا

المنهج وتلك الوسائل فإن ذلك الإحساس قد زاد تضاعفه عندما واتتنا الجرأة على الدعوة إلى تأسيس علم الفصاحة ، كما أننا نعترف أن دورنا قد حدد معالم الطريق لمن شاء أن يسلك دروب الفصاحة ، كما يظهر دورنا أيضا فى جمع شتاتها المتفرق فى ثنايا كتب البلاغة واللغة على إختلاف عصورها ، كما أننا لا ندعى أننا وصلنا إلى نهاية طريق الفصاحة ، والدرجة الموصوفة بالكمال ، فالكمال لله وحده .

ويسعدنى أن أتقدم بالشكر إلى أستاذى الجليل محمد مصطفى هدارة وإلى أسرة معمل الصوتيات بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، وعلى رأسها أستاذى العالم الجليل بخاطره الشافعى نصر .

وفى النهاية ، أرجو الله سبحانه أن يجعل هذا العمل نافعاً للدين والوطن والإنسانية .

محمد على رزق الخفاجى

obeikandl.com

المقـــدمة

و تتضمن جزءين

الأول: الفصاحة فى الأصل اللغوى واستعمال العرب لها.

الثانى: الخلاف حول مدلولها ومدلول البلاغة وأسبابه.

obeikandl.com

obeikandl.com

المقـــدمة

أولا ـ الفصاحة فى الأصل اللغوى واستعمال العـرب لهـا :

حظيت الفصاحة باهتمام البلاغيين واللغويين ، فلقد حاول البلاغيون أن يصنفوها فى مباحث البلاغة ، كما حاول اللغويون أن يجعلوا الفصيح قضية لغوية هامة .

وهذا الاهتمام الذى ظهر من جانب البلاغيين واللغويين كان لابد له أن يأخذ اتجاهات ومفاهيم ، قد تتفق ، وقد تختلف ، وقد يشوبها الخلط فى بعض الأحيان .

ونرى ونحن نتلمس الفصاحة بالدرس ، ومفاهيمها بالتأصيل والتقويم أن نسلك فى ذلك منهجا يقوم على أساس الاستقراء لأطراف ظاهرة الفصاحة المتفرقة فى كتب البلاغة واللغة ، كما أن دراسة هذه الظاهرة اللغوية تستوجب منا فى بعض النواحى أن نسلك منهجا وصفيا . كما نرى أن تحديد الفصاحة بمقياس كل عصر على حدة لايفى بحاجتنا ، ولهذا سنحاول أن نحددها بمقاييس عامة قد استقرت ووضحت وسنفصل ذلك فى حينه ـــ إن شاء الله .

وكلمة (فصاحة) مصدر للفعل الثلاثى المضموم العين « فَصُح » فالفاء والصاد والحاء أصل يدل على الخلوص والنقاء ، ويرى ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة أن أصل المادة يرجع إلى اللبن : « والأصل أفصح اللبن : سكنت رِغْوَتُهُ . . وحكى : فصح اللبن فهو فصيح ، إذا أخذت عنه الرَّغوة . [1]

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة «فصح» . تحقيق عبد السلام هارون ط دار أحياء الكتب العربية ط الحلبى) ١٣٦٦ ـ ١٣٦٩ هـ .

وجاء فى لسان العرب مايؤيد هذا المعنى وذلك كما جاء فى قول فضالة السلمى:

رأَوْه فازْدَرَوْهُ وهو خِرْقٌ ... وينفعُ أهلَه الرجلُ القَبِيحُ

فلم يَخْشَوْا مصالتَهُ عليهم ... وتحتَ الرِّغوةِ اللبنُ الفصيحُ

ويذكر ابن منظور فى اختصاص أصل المادة باللبن أن أفصح اللبن « ذهب الدَّسَمُ عنه. وأفصحت الشاة : إذا انقطع لبؤُها ، وجاء اللبن بعد. وربما سمى اللبن فِصْحاً وفَصيحاً » . (٢)

واستعملت هذه المادة بمعنى الصفاء والخلوص لغير اللبن ، وذلك كما يورد ابن منظور عن ابن الاعرابى قوله : أفصح البول كأنه صفا ، ويورد ابن منظور قول رجل مريض : قد أفصح بولى اليوم ، وكان أمس مثل الحناء . (٣)

وينقل ابن منظور عن الازهرى مايدل على أن مادة (فصح) قد استخدمت لتدل على الكشف والظهور ، فيقال : يوم مفصح : لاغيم فيه ولا قُرّ والفِصْح: الصحو من القر . وأفصح الصبح بدا ضوؤه واستبان . وكل ماوضح فقد أفصح، وكل واضح مُفْصِح ، ويقال : فصَحَكَ الصبح : أى بَانَ لك وَغلَبَك ضوؤه (٤) .

ويرى الزمخشرى أن استخدام هذه المادة للصبح يدخل فى الاستخدام المجازى (٥) ثم استعملت مادة « فصح » لتدل على الظهور والبيان فى الكلام والخلوص من الأَلْكَنَة ، وهو عند الزمخشرى من المجاز أيضاً ويقول : أفصح العجمى : تكلم

---

(٢) لسان العرب لابن منظور فصل الفاء حرف الحاء (مادة فصح) ط . مصوره عن بولاق .

(٣) لسان العرب لابن منظور فصل الفاء حرف الحاء (مادة فصح) ط . مصوره عن بولاق .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) أساس البلاغة للزمخشرى مادة « فصح » ط بيروت سنة ١٩٦٥ م .

العربية ، وفصح : انطلق لسانه بها وخلصت لغته من اللكنة (٦) .

واستعمال « فصح » بمعنى الإجادة فى اللغة والخلوص من اللحن ، وكذلك استعمال « أفصح » بمعنى تكلم العربية بلا إجادة — قد ذكرهما ابنُ فارس فى معجم مقاييس اللغة ، كما غلّط ابنَ دريد لاستعماله كلمة « أفصح » بمعنى « فصُح » فى قوله : أفصح العربى إفصاحا ، وفصح العجمى فصاحة إذا تكلم بالعربية . . . وأراه غلطا ، والقول هو الأول . . (٧) .

وقد استخدمت « أفصح » للصبى إذا فهمنا مايقول فى أول كلامه ، كما تستخدم للاعجم إذا فهم كلامه بعد غمته .

كما قد تستخدم كلمة فصيح لغير الإنسان كما جاء فى قول أبى النجم : (٨)

أعْجَم فى آذانها فصيحاً

يعنى صوت الحمار أنه أعجم ، وهو فى آذان الأتُن فصيح بيّن .

وقد تستخدم كلمة « فصيح » صفة للمال الكثير الذى يظهر بين الناس ، وهو على سبيل المجاز عند الزمخشرى مستدلا على ذلك بالبيت الآتى : (٩)

وقد كنتُ ذا مالٍ فصيحٍ وصامتٍ وذا إبلٍ قدْ تعلمين وذا غنمِ

كما قد تستخدم كلمة « فصيح » ويراد بها الإنسان فى مقابل كلمة « أعجم » ويراد بها البهائم ، كما جاء فى الحديث : « غُفِر له بعدد كل فصيح وأعجم . . . » .

---

(٦) أساس البلاغة للزمخشرى مادة « فصح » ط بيروت سنة ١٩٦٥ م .
(٧) معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ ٤ ص ٥٠٦ .
(٨) لسان العرب مادة « فصح » .
(٩) أساس البلاغة (مادة فصح) .

أما كلمة « الفِصْح » بكسر الفاء فهى عيد النصارى مثل الفِطْر وزنا ومعنى ويجمع « فِصْح » على « فُصُوح » مثل حِمْل وحُمُول ، وكلمة « الفصح » الدالة الدال على عيد النصارى ، ليست من « الفصاحة » بشىء ، لأنها من مادة أخرى ليست عربية الأصل .

أما المعنى الذى شاع واستقر فى أذهان البيئات الثقافية منذ ظهور الإسلام لهذه المادة « فَصُح » فهو طلاقة اللسان بالكلام العربى وذلك المعنى مستخلص من كلام ابن فارس الذى يقول : « الفاء والصاد والحاء أصل يدل على اللسان الفصيح : الطليق ، والكلام الفصيح : العربى »[١٠] — ومن قول ابن منظور : « . . يقال : ماكان فصيحا ، ولقد فصح فصاحة وهو : البيّن فى اللسان والبلاغة.. »[١١] .

ولقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى أى بطلاقة اللسان وذلك فى سورة القصص عندما وصف سيدنا موسى عليه السلام أخاه هارون : « ... وأخى هرُونُ هو أفصحُ منى لسانا فأرْسِلْهُ معى رِدْءاً يُصدِّقنى إنِّى أخاف أن يُكذِّبُون . قال: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخِيكَ ونَجْعَلُ لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتِنا أنتما ومن اتَّبعكُما الغالبون . »[١٢] .

ومع أن القرآن لم يستخدم مادة « فصح » إلا فى هذه الآية إلا أنه هو الاستخدام الذى استقر وشاع فيما بعد ، ومازالت هذه المادة تحمل دلالة طلاقة اللسان ووضوح المعنى حتى الآن ، فالقرآن الكريم قد بلغ قمة الإعجاز عندما ميز الفصاحة باللسان ؛ فسلامة النطق هى لب الفصاحة .وسيتضح ذلك فيما بعد إن شاء الله .

---

(١٠) معجم مقاييس اللغة جـ ٤ ص ٥٠٦ .
(١١) لسان العرب مادة « فصح » .
(١٢) سورة القصص ٣٤ ــ ٣٥ .

ولقد ورد هذا المعنى فى تناول الأحاديث الشريفة لهذه المادة «فصح» فيروى عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنه قال : « يارسول الله ، مَا لَكَ أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا . ؟ قال : كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظتنيها ، فحفظتها .. »[١٣] .

ولقد نقل السيوطى حديثا آخر يؤكد معنى هذه المادة ، بل يضيف إليها شيئاً آخر ، يقول السيوطى : « .. وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان من طريق يونس بن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمىّ عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم دَجْن : كيف ترون بواسقها . ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها قال : كيف ترون قواعدها .. ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها .. قال : .. قال : كيف ترون جوّنها .. ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : كيف ترون رحاها استدارت .. ؟ قالوا : نعم ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : كيف ترون برقها . ؟ أخفيا أم وميضا أم يشق شقا .. ؟ قالوا : بل يشق شقا .. فقال : الحياءُ . فقال رجل : يارسول الله ، ما أفصحَكَ .. ما رأينا الذى هو أعرب منك .. قال : حق لى ، فإنما أنزل القرآن على بلسان عربى مبين .. »[١٤] .

ونستخلص من هذا الحديث أن تناول الرسول لها والمسلمين فى ذلك الوقت إنما يوحى بطلاقة اللسان وسلامة النطق ، ويضاف إلى ذلك عروبة الألفاظ وسلامتها فى تراكيبها من اللحن والخطأ . وهذان المدلولان قد صارا فيما بعد شرطين من شروط الفصاحة .

ولدينا حديث آخر يؤكد المعنى المتداول لكلمة « فصح » فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أفصح العرب . » وروى هذا الحديث بلفظ :

---

(١٣) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ج ١ باب الباء مع السين ، انظر البيهقى أيضا نفس المادة .

(١٤) النهاية فى غريب الحديث ج ٣ باب الفاء مع الصاد .

« أنا أفصح من نطق بالضاد بيْدَ أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر .. »[١٥] .

وتدل كلمة « أفصح » هنا على أنها تنحصر فى النطق الصحيح للغة ألفاظا وجملا . وأن الرسول أفصح العرب جميعاً وهو من قريش التى هى أفصح العرب كما يذكر السيوطى ناقلا عن طائفة من العلماء معللا فصاحة ألسنتها وصفاء لغتها بأن الله قد اختارهم من جميع العرب واختار منهم النبى ، وجعلهم قُطّان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب .[١٦] .

ولذلك تخلصت قريش من العيوب التى تقلل من الفصاحة والتى التصقت ببعض القبائل فى كلامهم مثل عنعنة تميم ، وعَجْرَفِيّة قيس ، وكشكشة أسد ، وكسكسة ربيعة ، وكسر أسد وقيس .

أما بنو سعد بن بكر — وهم الذين قد قضى الرسول بينهم فترة صباه الأولى — فهم من عُلْيَا هوازن الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عُلْيا هوازن وسفلى تميم .

ويروى عن ابن عباس أن القرآن نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن .

ويفسر السيوطى « عجز هوازن » بقوله : « وهم الذين يقال لهم علیا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية

---

(١٥) النهاية فى غريب الحديث ج ٣ باب الفاء مع الصاد .
(١٦) النهاية فى غريب الحديث ج ٣ باب الفاء مع الصاد .

وثقيف . . ، ، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : « أفصح العرب عليا هوازن ، وسفلى تميم »[١٧] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم أفصح الخلق ، وقد جاءته الفصاحة من الله الذى خلق له لسانا طلقا ، وعقلا راجحا ، والذى وضعه وأوجده فى قريش ، وهيأ له أن ينشأ فى بنى سعد بن بكر أفصح قبيلة فى هوازن التى نزل القرآن بخمس لغات منها .

• • •

نستطيع أن نستخلص من هذا العرض لاستعمال العرب لمادة « فصح » ولأصلها اللغوى — أن هذه الكلمة فى بدء نشأتها كانت مرتبطة بالحياة المادية فى البيئة البدوية وأن الأصل فى استعمالها مرتبط باللبن الفصيح الذى سكنت رغوته أو كشفت عنه ، ثم استخدمت اللفظة لتدل على الخلوص والصفاء والوضوح مثل أفصح البول ، وأفصح الصبح ، ثم انتقلت اللفظة بعد ذلك إلى المعنى المجازى لها لتختص باللسان واللغة لتدل على الإبانة حتى لو كانت من الأعجمى أو الطفل ، واستقرت اللفظة أخيرا لتدل على اللسان المنطلق والنطق السليم بألفاظ عربية جيدة . وهذا الاستعمال الأخير للفظة هو الذى شاع واستقر فى أكثر عصورها .

كما نستطيع أن نستخلص أن معنى كلمة « فَصُح » يقع فى مكانة وسطى بين كلمتى « فسح » و « فضح » ، فالفاء والسين والحاء كلمة تدل على سعة واتساع ، ولكنها سعة محدودة وبمقدار كقوله تعالى : « يأيُّها الذين آمنوا إذا قيل لكم تَفَسَّحُوا فى المجالس فافْسَحُوا يفسح اللهُ لكم ، وإذا قيل انشزوا فانْشُزُوا يرْفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ والله بما تعملون خبير »[١٨] .

أما الفاء والضاد والحاء مادة تدل على الغلبة والشمول وقد ارتبطت هذه المادة غالبا بكشف القبح والمساوىء ، ويقال للنائم وقت الصباح : فَضَحَكَ

---

(١٧) المزهر ص ٢١٠ .
(١٨) سورة المجادلة آية ١١ .

الصبح فقدم ، ومعناه كما يذكر ابن منظور « أن الصبح قد استنار وتبين حتى بينك لمن يراك وشهرك ، وقد يقال أيضاً : فصحك الصبح بالصاد ، ومعناهما متقارب »[١٩] .

و « فضح الصبح » من المجاز عند الزمخشري مثل[٢٠] :

حتى إذا ما الديك نادى الفجرا .. وفضح الصبح النجوم الزهرا

وفي الحديث أن بلالاً رضي الله عنه أتى ليؤذن بالصبح فشغلت عائشة بلالا حتى فضحه الصبح أي دهمه فضحة الصبح وهي بياضه وكشفته وبينته للأعين فصار كما يفتضح بعيب ظهر منه .

ولقد استخدم القرآن الكريم مادة « فضح » بهذا المعنى ، ولم ترد هذه المادة في القرآن الكريم إلا في قوله تعالى في سورة الحجر على لسان لوط : « قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون » .

فالكشف والإبانة في كلمة « فصح » يقع في مكانة وسطى كما ذكرنا بين مادتي « فسح » التي تفيد السعة والكشف بمقدار و « فضح » التي تفيد الكشف في غلبة وشمول .

كما نلاحظ أن مادة « فصع » قريبة جداً من « فصح » ، فالفاء والصاد والعين تدل على خروج شيء من شيء وظهوره ، ويقال فصع الرطبة إذا قشرها[٢١] .

ومن المؤكد أن كثيراً من الكلمات المتقاربة في اللفظ تتقارب معانيها ، وإذا نظرنا إلى المواد التي اجتمعت فيها الفاء مع الصاد أو الصاد مع الحاء نجدها ترتبط بمعنى الوضوح والإبانة بكثير أو قليل فمادة « صاح » تفيد إبانة الصوت مع

---

(١٩) لسان العرب مادة « فصح » .
(٢٠) أساس البلاغة مادة « فصح » .
(٢١) معجم مقاييس اللغة جـ ٤ ص ٥٠٦ مادة « فصح » .

الاستغاثه و « صحّ » تفيد ظهور العافية و « صحا » تفيد كشف الجفنين عن العينين و« فصل » تفيد ظهور الحدود ...

وعلى أية حال فانما يهمنا هو مادة فصح التى نحن بصددها ، ونلاحظ أن مصدر « فصح » وهو فصاحة قد ندر استعماله حتى صدر الاسلام ولم نعثر بعد على نص يتضمن هذه اللفظة « فصاحة » مما يجعلنا نميل إلى أن هذه اللفظة حادثة فى الاسلام كما أن مدلولها اللغوى والاصطلاحى لم يتحدد إلا بعد الاسلام.

ثانيا ـ الخلاف حول مدلولها ومدلول البلاغة واسبابه :

هل هناك خلاف حول مدلول كلمة « فصاحة » ومدلول كلمة « بلاغة » ؟ .. وما المدى الذى يمكن أن يصل إليه ذلك الخلاف إن وجد .. ؟

لقد رأينا فيما سبق دلالة كلمة « فصاحة » وأنها قد اتخذت لها مدلولا مجازيا ينحصر فى طلاقة اللسان بكلمات عربية نقية . ولقد ظلت تستعمل بمعناها اللغوى فترة طويلة حتى أخذ معناها الاصطلاحى فى الظهور والاكتمال عند شراح تلخيص المفتاح . وسنفصل ذلك فيما بعد ـــ إن شاء الله .

أمـــا كلمة « بلاغة » فهى أكثر انتشاراً واستعمالا من كلمة « فصاحة » ، والمتتبع لتاريخ اللفظة يجد أن استعمالها لم ينتشر إلا بعد القرن الأول تقريبا .

والقرآن الكريم لم يستخدم لفظة « بلاغة » ليعبر بها عن معانيه كما أنه لم يستخدم لفظة « فصاحة » مع أنه قد استخدم لفظة « أفصح » كما ذكرنا .

ولقد استعمل القرآن الكريم مادة « بلَغ » بفتح اللام فى كثير من الآيات القرآنية لتدل على بلوغ الحُلُم كما جاء فى سورة يوسف[٢٢] وسورة النور[٢٣]

---

(٢٢) الآية ٢٢ .

(٢٣) الآيتين ٥٨ ، ٥٩ .

وسورة القصص[٢٤] وسورة النساء[٢٥] وسورة الأنعام[٢٦] وسورة الكهف[٢٧].
كما استخدم القرآن هذه المادة « بلَغ » بمعنى الوصول فى كثير من الآيات ونذكر من هذا الاستعمال على سبيل المثال ما جاء فى سورة الكهف[٢٨] والصافات[٢٩] والأحقاف[٣٠] ومريم[٣١] والبقرة[٣٢] . واستخدم القرآن الكريم كلمة «بلاغ» بمعنى كفاية وبرهان كما جاء فى صورة إبراهيم[٣٣] والنحـــل[٣٤] ويس[٣٥] والأنبياء[٣٦] والجن[٣٧].

أما « بلغُ » بضم اللام فهى فعل لازم مصدره يأتى على وزن « فعالة » «بلاغة» وهو مصدر سماعى ، والقرآن الكريم لم يستخدم هذه المادة إلا مرة واحد فقط فى قوله تعالى : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا[٣٨].

وكلمة « بليغ » وصف يطلق على القول كما جاء فى الآية الكريمة ، كما يطلق على القائل أيضا ، والرجل البليغ هو ما كان كلامه حسنا فصيحا يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما فى قلبه ، وجاء فى لسان العرب أن « البَلْغ » و « البِلْغ » هو البليغ من الرجال ، كما أورد : « البَلَغَة : البلاغة » ناقلا ذلك عن السيرافى وسيبويه.

ويقرر ابن منظور أن معنى البلاغة هو : الفصاحة[٣٩].

وسنحاول أن نتتبع لفظتى « بلاغة » و « فصاحة » لنتعرف على مدلوليهما

---

(٢٤) الآية ١٤ .
(٢٥) الآيـة ٦ .
(٢٦) الآيـة ١٥٢ .
(٢٧) الآيـة ٨٢ .
(٢٨) الآيات ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٣ .
(٢٩) الآيـة ١٠٢ .
(٣٠) الآيـة ١٥ .
(٣١) الآيـة ٨ .
(٣٢) الآيات ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ .
(٣٣) الآية ٥٢ .
(٣٤) الآيات ٣٥ ، ٨٢ .
(٣٥) الآية ١٧ .
(٣٦) الآية ١٠٦ .
(٣٧) الآية ٢٣ .
(٣٨) النساء ٦٣ .
(٣٩) لسان العرب المجلد الثامن الثامن ص ٤١٩ : ٤٢١ مادة « بلغ » .

بقدر مايتاح لنا من نصوص، ونستطيع ان نقول : إن استعمال لفظتى «فصاحة» و «بلاغة» لم نظفر به حتى آخر القرن الأول تقريبا، ومن أقدم النصوص العربية التى وصلت إلينا متضمنة لفظة « بلاغة » ما أورده الجاحظ عن ابن المقفع (توفى سنة ١٤٣ هـ) ، فلقد سئل : ماالبلاغة . ؟ فقال مجيبا : « البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل . فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحىُ فيها، والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين ، وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل ، والإطالة فى غير إملال[٤٠] » .

وابن المقفع أديب مترجم نقل عن الأدب الفارسى كتبا كثيرة اشتهر بعض منها فى تراثنا وكان معاصرا لعمرو بن عبيد المعتزلى المتوفى سنة ١٤٤ هـ والذى سئل عن معنى البلاغة ومفهومها عنده كما سئل معاصره ابن المقفع فقال : « .. إنك أن أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنه فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب[٤١] » .

وشيوع كلمة « بلاغة » فى زمن ابن المقفع وعمرو بن عبيد وعدم عثورنا عليها قبل هذين النصين يجعلنا نميل إلى أن هذه اللفظة حادثة فى الاسلام مع أن مادتها عربية خالصة وأنها لم تنتشر قبل بداية القرن الثانى الهجرى وأنها ذاعت على

---

(٤٠) البيان ج ١ ص ١١٥ .
(٤١) البيان ج ١ ص ١١٤ .

ألسنة المتكلمين من المعتزلة ـ مثل عمرو بن عبيد ـ الذين حاولوا أن يتسلحوا بالقدرة اللسانية ليواجهوا بها خصومهم ، وليفسروا بها روعة النص القرآنى . أى أنها ارتبطت بالنشاط الفكرى للمعتزلة .

أما ترددها على لسان رجل كابن المقفع فله ما يبرره ، فهو أديب مترجم ويستطيع أن يوضح مفهوم البلاغة على ضوء ثقافته ، وبالنظر فى ما أورده الجاحظ عنه نرى ملاحظات ناضجة عن المقام والإيجاز والإطناب والمواقف التى يحسن فيها كلاهما وبراعة الاستهلال ورد الأعجاز على الصدور كما نرى إشارة سريعة تتصل بالفصاحة فى قوله : « .. إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فانه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك[٤٢] » .

فقوله « أرضيت من يعرف حقوق الكلام » نفهم منه أنه يجب أن يكون الكلام ملتزما بقواعد اللغة ولا يخالف ما اصطلح عليه علماء اللغة ونطق العرب الفصحاء ، وقد يعنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضا .

ونستطيع أن نستخلص من القطعة المروية عن عمرو بن عبيد أن كلمة «بلاغة» تشمل موضوعات صارت فيما بعد من مباحث «الفصاحة» فقوله : « ... بالألفاظ المستحسنة فى الآذان » تعنى أن الألفاظ تقع فى الآذان موقعا حسنا فلا تنافر بين حروف كلماتها أو بين كلماتها ، ولا غرابة فى ألفاظها . وقوله : « المقبولة عند الأذهان .. » تعنى أن الأذهان تقبلها لخلوها من التعقيد اللفظى أو التعقيد المعنوى ، وبعدها عن الوحشى والسوقى من الألفاظ .

وينهى عمرو بن عبيد عن التكلف فى قطعة أخرى لأنه يذهب بالبلاغة « لا خير

---

(٤٢) البيان ج ١ ص ١١٥ ـ ص ١١٦ .

فى المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، وإذا طال الكلام عرضت المتكلم أسباب التكلف ، ولا خير فى شىء يأتيك به التكلف[٤٣] » .

ونستطيع أن نقول : إن استعمال كلمة « بلاغة » عند ابن المقفع وعمرو بن عبيد ومن عاصرهما يشمل موضوعات صارت فيما بعد من موضوعات الفصاحة . ولعل استعمال العتابى للفظة بلاغة وفهمه لها يوضح لنا ذلك ، فلقد سئل عن البلاغة فأجاب قائلا : « .. كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ ، فان أردتَ اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق » .

ويفسر الجاحظ مقصد العتابى من قوله « أفهمك حاجته » بأنه الإفهام على مجارى كلام العرب الفصحاء « .. والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعنِ أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديِّين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة .. .. وإنمـــا عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجارى العرب الفصحاء[٤٤] .

ولو كانت البلاغة إفهاما فقط لاختلط الخطأ بالصواب والإغلاق بالإبانة والملحون بالمعرب ولكنه إفهام بالكلام العربى الفصيح .

ونلاحظ هنا أن العتابى يفسر البلاغة بالفصاحة ، فمعظم الذى ذكره يدخل فى موضوعات الفصاحة كما استقرت فيما بعد مثال ذلك قوله « .. كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ .. » ، فالإعادة والحبسة والاستعانة من عيوب الفصاحة . ومن الأشياء التى يعاب بهـا الخطيب ويفسر

---

(٤٣) البيان ج ١ ص ١١٥ .
(٤٤) البيان ج ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

العتابى لسائله معنى الاستعانة فيقول : « . . . ألا تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: ياهناه ، وياهذا ، ياهيه، واسمع منى ، واستمع إلىّ ، وافهم عنى ،أولست تفهم أو لست تعقل ، فهذا كله وما أشبهه عىّ وفساد » . (٤٥)

كما نستطيع أن نتلمس هذا الاستعمال فيما ورد لنا من الصحيفة الهندية التى أحضرها بهلة الهندى وترجمها أبو الأشعث وهى ملاحظات تدخل معظمها فى الفصاحة وخاصة مايتصل بفصاحة المتكلم ، فالخطيب يجب أن يكون « رابط الجأش ساكن الجوارح قليل الحظ متخير اللفظ . . « وأن يكون عارفا لمقدرته فلا يغتر بنفسه ولاتنزعزع ثقته بها ويكون فى التهمة لنفسه معتدلا ، وفى حسن الظن بها مقتصدا »(٤٦) .

كما تهتم الصحيفة أيضا بالألفاظ ومدى ملاءمتها لمعانيها والمقام الذى قيلت فيه ، فلا ينقح المتكلم ألفاظه كل التنقيح إلا إذا كان السامع حكيما أو فيلسوفا ، لأن الكلمات الاصطلاحية لايفهمها إلا أهل طوائفها ، ولأن التعمق يؤدى إلى الغموض والغموض يؤدى إلى التعقيد فتنتج الغرابة التى يجب أى يخلو منها الكلام والألفاظ .

أما الجاحظ وهو مؤسس البلاغة العربية ، قد تحدث عن أشياء كثيرة استقرت فى مباحث الفصاحة فيما بعد ، والجاحظ لم يفرق بين مدلول كلمتى « بلاغة » و « فصاحة » مع أنه أول من استخدم كلمة « فصاحة » استخداما قريبا من معناها الذى استقر أخيرا . ونستطيع أن نرى ذلك من تعليقة على كلام العتابى عن البلاغة « . . . والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده بالكلام الملحون والملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة . »

---

(٤٥) البيان جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .
(٤٦) البيان جـ ١ ص ٩٣ .

ويعلق الجاحظ على الذين يفهمون كلام الأعاجم الملحون قائلا : « فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنه والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كلّه سواء ، وكله بيانا . »(٤٧)

فالفصاحة عكس اللكنه ، أو إن اللكنة تفسد الفصاحة ، والبلاغة ليست إفهاما فقط ولكنه إفهام على مجارى كلام العرب الفصحاء الذى يخلو من اللكنة والخطأ والإغلاق واللحن. فالبلاغة تتحقق بما يحقق الفصاحة، وتفسد بما يفسدها .

والجاحظ تحدث عن التنافر والغرابة وجريان الكلام على قواعد اللغة لكنه لم يصنّف هذه الموضوعات تحت الفصاحة كما أنه قد تحدث عن موضوعات بلاغية بلاغية كثيرة لكنه لم يصنفها تحت البلاغة ومع ذلك لم يتوقف الجاحظ عند هاتين اللفظين ليحدد مدلولها أو ليفرق بينهما .

ومدلول اللفظتين يكاد يكون متقاربا عند الذين تحدثوا عنهما فى عصر الجاحظ ومن سبقوه ، مع أن الجاحظ هو أول من اقترب من مدلول كلمة « فصاحة » . (٤٨)

أما الاستعمالات التى تلت الجاحظ فلقد ظلت فترة طويلة غامضة ، ولا يستطيع القارىء أن يظفر باستعمال دقيق وواضح للفظة فصاحة بحيث يستقل معناها عن لفظة بلاغة .

فابن قتيبه المتوفى سنة ٢٧٦ هـ قد تحدث عن قضايا بلاغية فى « تأويل مشكل القرآن » الذى يرد فيه على الملاحدة الذين يطعنون فى نظم القرآن فبدأ بعرض آيات القرآن التى بها صور وأخيلة ومجاز وتقديم وتأخير . . ، ولعله قد لمس الفصاحة

---

(٤٧) البيان جـ ١ ص ١٦١ .

(٤٨) أنظر رسالة الماجستير التى قدمناها الى آداب القاهرة تحت عنوان مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ فى البيان والتبيين والحيوان . عام ١٩٧٠ .

فى الفصل الذى ذكره عن الألفاظ المتعددة المعانى وماذكره عن دلالات حروف المعانى وتبادلها فى الكلام .

كما أننا نجد ابن قتيبه قد لمس بعض موضوعات الفصاحة فى كتاب « الشعر والشعراء » عندما تحدث عن الألفاظ التى تفسد المعنى لقبحها أو لغرابتها وكذلك عندما تحدث عن الشعر الذى حسن لفظة وقلّ معناه والشعر الذى حسن لفظه ومعناه وهما يدخلان فى عدم التنافر الذى هو شرط للفصاحة فيما بعد .

ومع ذلك فإن ابن قتيبه لم يستعمل « الفصاحة » و « البلاغة » استعمالا مستقلا محددا .

والذى نجده عند ابن قتيبة نجده عند المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ . فهو لم يقدم لنا استعمالا محددا للفظتين مع أنه قد أفاض الحديث عن التشبيه كما شمل كتاب الكامل تعليقات بلاغية على النماذج الأدبية تدور حول الاستعارة والإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير .

ولا نستطيع أن نلمس شيئا يتصل بالفصاحة عند المبرد إلا تلك الشذرات القليلة التى أوردها عن الألفاظ الخسيسة الفاحشة وطريقة الكناية عنها بما يدل على معناها .

أما ابن المعتز (توفى ٢٩٦) هـ صاحب كتاب البديع فهو لم يذكر كلمة « فصاحة » فى كتابه وإنما قد نقل عن غيره معنى كلمة بلاغة فى قوله : « سئل آخر عن البلاغة فقال : دنوّ المأخذ ، ونزع الحجة ، وقليل من كثير » (٤٩) .

وهو يجعل البديع مشتملا على الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد الأعجاز على ماتقدمها والمذهب الكلامى ، كما نجده قد ابتعد عن التعريفات كغيره ممن يتجهون اتجاها محافظا على خلاف من تأثروا بالثقافة اليونانية .

---

(٤٩) البديع لابن المعتز ص ٢٣ شرح وتلعيق محمد عبد المنعم خفاجى سنة ١٩٤٥ ط مصطفى البالى الحلبى .

أما عن الرسالة العذراء المنسوبة إلى إبراهيم بن المدبر (توفى ٢٧٩) هـ والتى وردت فى مجموعة رسائل البلغاء التى جمعها محمد كرد على [٥٠] فالذى يعنينا منها ما أورده عن الألفاظ وتناسبها مع المقامات المختلفة ، فطبقات الكلام عنده ثمانية أقسام ، أربعة منها للطبقة العلوية ، وأربعة دونها وبعد أن يفصل ابن المدبر درجة كل طبقه ، يوضح مايجب أن يستعمل من ألفاظ عنه كل منها « . . ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ، ينبغى للكاتب ألا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به دونه . . [٥١] ومن أجل ذلك كان من الألفاظ ماهو مرغوب عنها ، وما هو مرغوب فيها فمن الألفاظ المرغوب عنها فى كتب السادات والأمراء والملوك ، على اتفاق المعانى ، مثل « أبقاك الله طويلا وعمرك مليّا » ويروى أنه لافرق بين قولهم : « أطال الله بقاءك وبين قولهم : « أبقاك الله طويلا » ولايجد تفسيرا لهذا التفضيل إلا اتباع من سبقوه فى قولهم : « هذا أرجح وزنا ، وأنبه قدرا فى مخاطبة الملوك » . [٥٢]

كما أنهم جعلوا : « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلة فى كتب الأدباء والظرفاء : « جعلت فداك على اشتراك معناه ، واحتماله أن يكون فداءه من من الخير ، كما يكون فداء له من الشر ، كما لايجوز أن يكتب إلى الاخوان «أبقاك الله وأمتع بك » .

كما يجب على الكاتب وجوب التحفظ فى الفاتحة والخاتمة « . . فلا يجعل ما ينبغى له أن يكتب فى آخر كتابه فى أوّله ، ولا أوّله فى آخره . . [٥٣]

ومما يدخل فى الفصاحة أيضا نهيه عن تجنب الغموض والإبهام الذى يؤدى إلى التعقيد الذى ينشأ عن التركيبات الغامضة .

---

(٥٠) رسائل البلغاء ص ٢٢٧ اختيار وتصنيف محمد كرد على الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٦ ط لجنة التأليف والترجمة .

(٥١) رسائل البلغاء ص ٢٣٢ .

(٥٢) رسائل البلغاء ص ٢٣١ .

(٥٣) رسائل البلغاء ص ٢٣٤ .

كما أشار إلى ضرورة التفريق بين مايجوز فى الشعر وما يجوز فى الرسائل ، لأن الشعر موضع اضطرار ، ثم ذكر صورا من الضرورات الشعرية (٥٤) .

والذى يعنينا من هذه الرسالة ذلك الجانب المتعلق بصفات الألفاظ ومناسبتها أو عدم مناسبتها للمقامات وهى مقامات من توجه إليهم الرسائل فهم ملوك وأمراء وسادات وقضاة وعلماء ، أى مقامات متعلقة بمجالس الآداب والعلم ، وهى تخالف مقامات الخطابة التى يمتزج فيها أخلاط من الثقافات والنوازع . وكلمة (الألفاظ) عند ابن المدبر لاتعنى المفردات ،وإنما يستعملها بمعنى الكلام أو التراكيب .

كما نلاحظ أن كثير من أفكار هذه الرسالة مأخوذ من آراء الجاحظ المنثورة، فى البيان والتبيين والحيوان وبعض رسائله ،ومع ذلك يسميها ابن المدبر «الرسالة العذراء ، ويعلل تسميته لها بذلك لأنها — فى نظره بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين ، ولالمستها أكفّ المفوهين ، ولاغاصت عليها فطن المتكلمين ، ولاسبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين .(٥٥)

أما أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابى البستى (٣١٩ — ٣٨٨ هـ) فإنه يرى أن عمود البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدّل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة . (٥٦)

أما ما يوضح تصوره عن الفصاحة فهو ما ذكره من الألفاظ المتقاربة المعنى والتى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة مراد الخطاب ولكنها مختلفة

---

(٥٤) رسائل البلغاء ص ٢٣٥ .
(٥٥) رسائل البلغاء ص ٢٥٣ .
(٥٦) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الكريم ص ٢٦ تحقيق محمد خلف الله أحمد ، د. زغلول سلام ط دار المعارف .

فى درجة دلالتها ، وهذه الألفاظ التى ذكرها الخطابى ست عشرة لفظة ويحاول أن يفرق بين كل اثنتين منها مثل : العلم والمعرفة ، والجد والشكر ، والبخل والشح ، والنعت والصفة اقعدْ واجلسْ وبلى ونعَم ، وذلك وذاك ، ومن وعن[٥٧] كما يتعرض لبعض الاستعمالات اللغوية ....

ومن الأشياء الجديرة بالذكر حديثه عن الغرابة واتهام بعض الناس للقرآن بالابتذال لخلوه منها ورد الخطابى على ذلك .

أما أبو الحسن على عيسى الرمانى (٢٩٦ — ٣٨٦ هـ) ، فإنه يرى أن البلاغة وجه من وجوه إعجاز القرآن ، والبلاغة عنده ليست إنهاما فقط — كما ذكر الجاحظ — لأنه قد يحدث الإفهام باللفظ الغث المستكره والنافر المتكلف ، وإنما البلاغة فى نظره : « إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ[٥٨] .

والبلاغة عند الرمانى عشرة أقسام هى : الإيجاز والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

ولعل ما كتبه عن التلاؤم هو الذى يدخل فى الفصاحة ، فهو يرى أن التلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف فى التأليف . ويقسم التأليف إلى ثلاثة أقسام : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا[٥٩] .

وهنا يبدو تأثره الواضح بالجاحظ وخاصة عندما توقف ليوضح أسباب التنافر مستشهداً بما أورده الجاحظ من أمثلة .

---

(٥٧) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الكريم ص ٢٦ تحقيق محمد خلف الله أحمد ، د. زغلول سلام ط دار المعارف .
(٥٨) ثلاث رسائل ص ٦٩ .
(٥٩) ثلاث رسائل ص ٨٧ .

وإذا ما انتقلنا إلى أبي بكر الباقلاني متوفى سنة ٤٠٣ فاننا نلحظ بسهولة خلطه بين اللفظين وهو يستعملهما بمدلول واحد مع أنه تحدث عن موضوعات تتعلق بكل واحدة منهما ، كما نلاحظ أنه يضيف لفظة ثالثة إليهما تقترب من مدلوليهما وهي كلمة : « براعة » ولدينا فقرة شملت الألفاظ الثلاث ، يقول : « .. ونضيف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع ، ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجاري الخطاب ، وإن كانت هـــذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح وتقصد فيه البلاغة[٦٠] .

والباقلاني يكثر من استخدام لفظة فصاحة ليدل بها على البلاغة ويمكن أن يتضح ذلك أيضا من قوله : « .. ولذلك قلنا إن المتناهي في الفصاحة والعلم والأساليب التي يقع فيها التفاصح ، متى سمع عرف أنه معجز ، لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، ويعرف من حال غيره مثلما يعرف من حال نفسه ، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو[٦١] .

ومن الموضوعات التي ذكرها الباقلاني ويمكن أن تصنف ضمن موضوعات الفصاحة ما ذكره عن الترادف ، وهو ظاهرة لغوية تؤدي إلى التضخم في اللغة وتعيب الفصاحة ولقد امتدحه الباقلاني وجعله من مميزات اللغة العربية .

ومن الموضوعات التي يمكن أن تدرج أيضا تحت الفصاحة ما ذكره عن صفات الحروف كالمهموس والمجهور والحروف الحلقية وغير الحلقية ، والحروف

---

(٦٠) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣١ ط صبيح سنة ١٩٥١ م.
(٦١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٢ ط صبيح سنة ١٩٥١ م.

الشديدة وغير الشديدة والمطبقة والمنفتحة ومثل هذه الأشياء التى اختص بها علم الأصوات اللغوية(٦٢) .

ومع أن الباقلانى قد خلط بين مدلولات البلاغة والفصاحة والبراعة نجده فى الجزء الأخير من كتابه إعجاز القرآن يورد تعريفات لهذه الألفاظ ، ونجده يورد الحوار المشهور الذى جاء فى البيان والتبيين عن البلاغة عند الفارسى واليونانى والرومى والهندى ولا يذكر لنا بعد ذلك تعريفا لها كما يتصوره . « .. ويذكر الجاحظ فى كتاب البيان والتبين أن الفارسى سئل ما البلاغة .. فقال : معرفة الفصل والوصل ، وسئل اليونانى عنها فقال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام . وسئل الرومى عنها فقال : حسن الاقتضاب عند البداهة والعزارة يوم الإطالة . وسئل الهندى عنها فقال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة .(٦٣) كما ينقل عن الجاحظ فى معنى البلاغة بعض مختارات من الصحيفة الهندية .

وأكثر هذه الملاحظات السريعة تدور حول مراعاة مقتضى الحال والإيجاز والاطناب والفصل والوصل ، وكما ذكرنا آنفا نقول : إن الباقلانى لم يعرّف البلاغة بلفظ من عنده كما أنه لم يتخير رأيا من الآراء التى ذكرها وأوردها من كتاب البيان والتبيين .

ونجده يفسر كلمة « براعة » بقوله : « .. وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة: الحذق بطريقة الكلام وتجويده ، وقد يوصف بذلك كل متقدم فى قول أو صناعة(٦٤) وكلمة براعة — كما يبدو من كلام الباقلانى — تشمل البلاغة والفصاحة وأن المقصود بها هى التفوق فى كليهما ويتضح ذلك من قوله « . فإن قال قائل:

---

(٦٢) اعجاز القرآن ص ٧٣ ـ ص ٧٥ .
(٦٣) اعجاز القرآن ص ١٥٨ .
(٦٤) اعجاز القرآن ص ١٥٨ .

فقد نجد فى آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وإنما تكون البراعة عندك منه فى مقدار ما يزيد على الكلمات المفردة ، وحد يتجاوز حد الألفاظ المستبدة ، وإن كان الأكثر على ما وصفته به[٦٥] .

والباقلانى يستخدم كلمة براعة فيما يقابل « اللكنة » كما يستخدم فصاحة فيما يقابل « العىّ » ، ونرى تعليقه على بيت من لامية البحترى التى نقدها فى كتابه حيث قال متحدثا عن السيف وصاحبه :

وكأن شاهره إذا استعرضوى به الـ ... حفان يعصى بالسماك الأعزل

حملت حمائله القديمة بقلة ... من عهد عاد عضة لم تذبل

ويعلق الباقلانى على البيت الثانى قائلا : « .. ثم انظر إلى هذا المقطع الذى هو بالعىّ أشبه منه بالفصاحة ، وإلى اللكنة أقرب منه إلى البراعة .. وقد بيّنا أن مراعاة الفواتح والخواتم والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لابد منه ، وأن الإخلال بذلك يخل بالنظم ، ويذهب رونقه ، ويحيل بهجته ويأخذ ماءه وبهاءه[٦٦] .

من ذلك نلمس أن الباقلانى يستخدم كلمة « براعة » وهو يعنى « البلاغة » و « الفصاحة » والتفوق فيهما ، لكننا فى الحقيقة نحس أن كلمة (براعة) ليست مساوية كل المساواة لكلمة (فصاحة) أو (بلاغة) .

وكما لم يورد لنا الباقلانى تعريفا للبلاغة خاصة بها واكتفى بما أورده الجاحظ عن الأمم ، نراه لا يورد للفصاحة تعريفا خاصا بها أيضا وإنما يكتفى بما ذكر عنها قبله ، يقول الباقلانى :

---

(٦٥) اعجاز القرآن ص ٢٣٣ .
(٦٦) اعجاز القرآن ص ٢٦٣ ـ ص ٢٦٤ .

« وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها : منهم من عبر عن معناها بأنه : ما كان جزل اللفظ حسن المعنى ، وقد قيل : معناها : الاقتدار على الإبانة عن المعانى الكامنة فى النفوس ، على عبارات جلية ، ومعان نقية بهية[٦٧] .

وهذان الرأيان المذان أوردهما الباقلانى أحدهما يتصل بالألفاظ ومدى ملاءمتها لمعانيها إلا أنه ذكر الجزالة فقط والجزالة تناسب المعانى الفخمة القوية، والمعانى ليست كذلك فقط ، فهناك معان رقيقة ولابد لها من ألفاظ تناسبها، ولا تصلح لها الألفاظ الجزلة .

أما الرأى الثانى فانه يتصل بما استقر بعد ذلك وعرف باسم فصاحة المتكلم وهذه النقطة أكثر وضوحا والتصاقا بالفصاحة لأن القدرة على إبانة المعانى الكامنة فى النفوس بعبارات جلية يتطلب موهبة فطرية ، وقدرة على التمييز بين الألفاظ المختارة ، وإخراج تلك الألفاظ من مخارجها كاملة من غير عيب يتصل بالنطق سواء كان عيبا ناتجا عن قصور فى أجهزة النطق أم عيبا ناتجا عن أداء هذه الأعضاء لوظائفها . ولعل ذلك يفسر كلمة (براعة) فهى ملكة متعلقة بفصاحة وبلاغة المتكلم .

أما عبد القاهر الجرجانى النحوى البليغ المتكلم على مذهب الأشعرى ، الفقيه على مذهب الشافعى المتوفى سنة ٤٧١ هـ[٦٨] فانه يبدو أكثر وضوحا من سابقيه فى موقفه من لفظة « فصاحة » ولفظة « بلاغة » وعبد القاهر الجرجانى ينثر آراء متفرقة فى كتبه ، ونراه فى الرسالة الشافية يصرح بما يأتى :

---

(٦٧) اعجاز القرآن ص ١٥٨ .

(٦٨) طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى ج ٢ ص ٢٤٢ .

١ — الفصاحة علم ، وهى علم يصعب تعليمه : « اعلم أن البلاء والداء العياء أن ليس علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذى تستطيع أن تفهمه مَنْ شئت ومتى شئت »(٦٩) .

٢ — علم الفصاحة يحتاج من يتصدى لأن يتعلمه أن يكون عنده استعداد فطرى « .. حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته فيرى ، وقلب إذا أريته رأى ، فأما وصاحبك لا يرى ما تريه ، ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت معه كالنافخ فى الفحم من غير نار .. »(٧٠) .

ويعلل عبد القاهر سبب هذه الصعوبة بأن علم الفصاحة لم تكتمل له قوانينه وأصوله كما اكتملت للعلوم الأخرى ، وهذه العلوم التى اكتملت لها قوانينها قد كثر فيها الخلاف :

« وإذا كانت العلوم التى لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس فى العلم بها واتفقوا على أن البناء عليها والرد اليها إذا أخطأ فيها المخطىء ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه وصرفه عن الرأى الذى رأى . . . فكيف أن يرد الناس عن رأيهم فى أمر الفصاحة وأصلك الذى تردهم اليه وتعول فى محاجتهم عليه استشهاد القرآن ، وسبر النفوس وفَلْيها وما يعرض فيها من الأدعية عندما تسمع وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأى ، ويقفى ويقضى إلا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته وصح ذوقه ، وتمت أداته .. »(٧١).

وإذا كانت الفصاحة علما عند عبد القاهر الجرجانى فما تصوره عنه .. ؟

فى الواقع نرى عبد القاهر يعقد فصلا يوضح فيه مراده من « البلاغة » و « الفصاحة » وكل لفظة تعبر عن الفن الكلامى يقول عبد القاهر : « .. فصل

---

(٦٩) ثلاث رسائل فى الاعجاز ص ١٤٣ .
(٧٠) المصدر نفسه ص ١٤٣ .
(٧١) المصدر نفسه ص ١٤٤ .

فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة ، والبيان والبراعة ، وكل ما شاكل ذلك، مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض ، من حيث نطقوا أو تكلموا ، وأخبروا السامعين من الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم. ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم »(٧٢) .

ويرى عبد القاهر البلاغة والفصاحة والبراعة وما شابهها لا معنى لها غير وصف الكلام بحسن الدلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين لتستولى على هوى النفس وتميل اليها القلوب .

فالبلاغة والفصاحة لفظتان تكاد ترادف كل منهما الأخرى فى نظر عبد القاهر ، وعبد القاهر الجرجانى نراه انطلاقا من هذا المفهوم ينكر فصاحة اللفظة المفردة ولا يرى لها مزية تنفرد بها ، كما أن الألفاظ لا تتفاضل فيما بينها وهى مفردة ، وإنما التفاضل فى الألفاظ من خلال وضعها فى التراكيب ويلح عبد القاهر على هذه الفكرة فى مواضع كثيرة فى كتابيه « دلائل الاعجـــاز » ، « أسرار البلاغة » ، مثل : « .. وهل تجد أحدا يقول : هذه لفظة فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ... وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة ، وفى خلافه : قلقة ونابية ، ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تَـلِقْ بالثانية فى معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها .. »(٧٣) .

ويستدل عبد القاهر على فكرته ـ لا مزية للألفاظ من حيث هى ألفاظ ـ

---

(٧٢) دلائل الاعجاز ص ٨٧ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .
(٧٣) دلائل الاعجاز ص ٨٨ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .

بقوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيضَ الماءُ ، وقُضِىَ الأمرُ واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين .. » .

كما يستدل على ذلك بكلمة « الأخدع » وكلمة « الشيء » مؤكدا أن اللفظة الواحدة قر تروقنا فى موضع ، وتثقل علينا فى موضع آخر(٧٤) .

ومع أن عبد القاهر يؤكد عدم وجود مزيه للفظة المفردة وأن الألفاظ لا تتفاضل فيما بينها وهى مفردة — يذكر أن للألفاظ مزايا وأن التفاضل بين لفظة مفردة وأخرى ممكن ، لكنه يقلل ويستهين بهذه القيمة يقول : « . . وهل يقع فى وهم — وان جُهِد — أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية... أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ... وعما يكدّ اللسان أبعد .. ؟ » .

فهذه مزايا للألفاظ تتفاضل بها وهى مفردة لكنها فى نظر عبد القاهر لا أثر لها فى الفصاحة .

أما المتأخرون فقد جعلوا هذه الأشياء موضوعات وشروطا فيما عرف بعد ذلك بفصاحة المفرد .

ولنستطيع أن نقول : إن مفهوم كلمة « فصاحة » عند عبد القاهر الجرجانى هو مفهومه لكلمة « بلاغة » ، وأن البلاغة أو الفصاحة تتحقق بالنظم أى نظم المعانى المرتبة فى النفس بألفاظ مرتبة فى النطق(٧٥) . لأن الألفاظ خدم للمعانى عند عبد القاهر ، ولأن الفضيلة « ليست لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك ، وتعمل رويتك ، وتراجع عقلك ، وتستنجد

---

(٧٤) دلائل الاعجاز من ص ٨٩ : ص ٩٢ .
(٧٥) دلائل الاعجاز ص ٩٧ .

فى الجملة فهملك »[٧٦] .

ولعل هذا المفهوم الذى استقر عليه عبد القاهر فى نظرته إلى الفصاحة قد أخذه من القاضى عبد الجبار الأسد أبادى المعتزلى قاضى قضاة الدولة البويهية بايران والمتوفى سنة ٤١٥ هـ فيقول فى كتاب المغنى فى أبواب التوحيد والعدل « اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضمّ على طريقة مخصوصة . ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة ، التى تتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولابد من هـــذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لهذا الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها .. »[٧٧] .

فإنكار فصاحة الكلمة المفردة ، وإثبات الفصاحة للكلمات المضمومة بطريقة مخصوصة ، والإعراب الذى هو وسيلة النحو فى إظهار وظائف الكلمات ورتبها . كل ذلك نجده عند عبد القاهر الجرجانى الذى يعترف ضمنا بسبق القاضى عبد الجبار له فيما وصل اليه « ... إنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات ، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة . فتراهم فى الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية فى معانى النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا .. »[٧٨] .

ومما يحمد للقاضى عبد الجبار أيضا أنه أورد لنا رأى أستاذه أبى هاشم الجبائى فى الفصاحة ، وهو رأى هام فى تاريخ البلاغة والفصاحة ، ويقول القاضى عبد

---

(٧٦) دلائل الاعجاز ص ١٠٣ .
(٧٧) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ج ١٦ ص ١٩٩ .
(٧٨) دلائل الاعجاز ص ٢٣٠ .

الجبار عن أستاذه : « قال شيخنا أبو هاشم : إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه ، وحسن معناه ، ولابد من اعتبار الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعدّ فصيحا ، فاذن يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين . وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر ، والنظم مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحدا ، وتقع المزية فى الفصاحة ، فالمعتبر ما ذكرناه ، لأنه يتبين فى كل نظم وكل طريقة ، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء : يسبق اليه ، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه فى ذلك النظم ، ومن يفضل عليه يفضله فى ذلك النظم .. »[٧٩] .

ويبدو من كلام أبى هاشم أن الفصاحة راجعة إلى اللفظ الجزل والمعنى الحسن فقط ولا شىء غيرهما ، ويوضح القاضى عبد الجبار رأى أستاذه أبى هاشم فى نفى الأهمية عن النظم وإرجاعها إلى الفصاحة التى هى جزالة اللفظ وحسن المعنى « .. إن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره فصارت الطرق التى عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتاده . كما أن قدر الفصاحة معتاد ، فلابد من مزية فيهما ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة فى النظم دون الفصاحة التى هى جزالة اللفظ وحسن المعنى ، ومتى قال القائل : إنى وإن اعتبرت طريقة النظم فلابد من اعتبار المزية فى الفصاحة فقد عاد إلى ما أوردناه »[٨٠] .

ولقد رأينا أن القاضى عبد الجبار قد وضح رأى أستاذه بإضافات كانت الأساس الذى بنى عليه عبد القاهر الجرجانى فكرته فى النظم وذلك عندما قال

---

(٧٩) المغنى جـ ١٦ ص ١٩٧ .
(٨٠) المصدر نفسه ص ١٩٧ ـ ص ١٩٨ .

القاضى عبد الجبار : « اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ...

ولا يتوقف الأثر الذى تركه أبو هاشم الجبائى عند تلميذه القاضى عبد الجبار الذى أوحى لعبد القاهر بفكرة النظم بمفهومها الجديد ، و إنما يظهر واضحا فى « سر الفصاحة »لابن سنان الخفاجى ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا :إن الكتاب يدور حول الفصاحة الجبائية أى جزالة اللفظ وحسن المعنى .

وأبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجى قد توفى سنة ٤٦٦ هـ ، ولقد اهتم بالفصاحة وحاول أن يفسرها بمفاهيم عصره ،وقد قدم لحديثه عن الفصاحة نبذا من أحكام الأصوات ومخارجها والمجهور منها والمهموس ..

ثم بدأ ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة فقال : « والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى ، لا يقال فى كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها : بليغة ، وإن قيل فيها : فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ،وليس كل فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه[٨١] .

ويمضى ابن سنان الخفاجى فى سرد تعريفات البلاغة عند من سبقوه وخاصة تلك التى جمعها الجاحظ فى البيان والتبيين ، ويصرح الخفاجى أن الفصاحة شطر من البلاغة ،والكلام عن الفصاحة فى نظره عام ولا يظهر معناها إلا فى الاستعمال.. وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها فكلامى على المقصود — وهو الفصاحة — غير متميز إلا فى الموضع الذى يجب بيانة من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ، فأما سوى

---

(٨١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق عبد المتعال الصعيدى ص ٤٩ — ص ٥٠ .

ذلك فعام لا يختص ،وخليط لا ينقسم ، وسأذكر بمشيئة الله ما يخطر لى،ويسنح بفكرى فى موضعه(٨٢) .

ثم يحاول ابن سنان أن يوضح الفصاحة فيراها تتحقق فى الألفاظ بشروط عدة ، وأن تلك الشروط تنقسم إلى قسمين : الأول يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها ، والثانى يوجد فى الألفاظ المنظوم بعضها مع بعض ، وبعد هذين القسمين ذكر أن من عرف هذه الشروط يصل إلى حقيقة الفصاحة ، ثم يتكلم بعد ذلك عن المعانى بانفرادها حتى يصبح الكتاب وافيا بالكلام عن الفصاحة والبلاغة لما أورده من أن البلاغة تتعلق مع الألفاظ بالمعانى .

وهكذا نجد كتاب سر الفصاحة منقسما إلى الأقسام الثلاثة الآتية :

الكلام على شروط الفصاحة فى اللفظة المفردة ، والكلام على شروطها فى الألفاظ المنظومة ، والكلام فى المعانى مفردة عن الألفاظ .

ونستطيع أن نقول : إن دروس البلاغة والفصاحة قد أصابها الجمود بعد انتهاء القرن الخامس تقريبا ، ويمكن أن نتوقف عند رجلين لهما الأثر الكبير فيمن جاءوا بعدهما سواء كان هذا الأثر مفيدا أم ضارا ، هذان الرجلان هما فخر الدين الرازى« ٥٤٤ — ٦٠٦ هـ » صاحب كتاب «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» ، والرجل الثانى هو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن على السكاكى « ٥٥٥ — ٦٢٧هـ » صاحب كتاب « مفتاح العلوم » .

وكتاب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، كما يبدو من عنوانه تلخيص للآراء التى سبقته والمتصفح له يستطيع أن يلمح آراء عبدالقاهر الجرجانى والقاضى عبدالجبار وأبى هاشم الجبائى وأبى الحسن الرمانى — متضمنة بين أبوابه وفصوله .

---

(٢١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق عبد المتعال الصعيدى ص ٥٠ ـ ص ٥١ .

ولا يعنينا فى هذا المقام إلا مفهوم الفصاحة والبلاغة عنده ؛ والرازى يصرح فى الفصل الأول من مقدمة الكتاب أن السر فى إعجاز القرآن هو فصاحته ويرفض كل المذاهب التى تخالف ذلك كالصرفة التى نادى بها النظام أو اشتمال القرآن على الغيوب ، كما قال به الباقلانى ، كذلك رفض مذهب من قالوا بمخالفة أسلوبه عن أساليب الشعر والخطب والرسائل .

والفصاحة عند الرازى أشرف العلوم وأجلها لأنها طريق معرفة الإعجاز القرآنى ، وترجع الفصاحة فى نظره إلى الألفاظ والمعانى[٨٣] وهنا نجد صدى أبى هاشم الجبائى وتلميذه القاضى عبد الجبار وعبد القاهر الجرجانى أيضا . وهنا نستطيع أن نقول : إن كلمة « فصاحة » عند فخر الدين الرازى مستعملة بمعنى (بلاغة) وأن لفظة (فصاحة) لم تأخذ عنده معناها الاصطلاحى الذى ثبّت أساسه ابن سنان الخفاجى ومن أجل ذلك نراه يقسم كتابه إلى قسمين أساسين سمى كل قسم جملة[٨٤] ونجد الجملة الأولى تختص بالمفردات ويحاول أن يثبت فى هذه الجملة أن إقامة الحجة لإثبات الفصاحة والبلاغة لا يتأتى بالدلالة اللفظية وإنما تجىء من الدلالة المعنوية بالصور البيانية . أما الجملة الثانية التى تختص بالدلالة المعنوية فهى خاصة بالنظم والتأليف .. وهنا نرى صدى عبد القاهر واضحا .

كما نرى أثر الجاحظ واضحا فيما ذكره عن الكلمة وما استقر فيما بعد باسم

---

(٨٣) أنظر نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز ص ١١٥ ط الآداب والمؤيد سنة ١٣١٧ هـ .

(٨٤) يقسم الفخر الرازى الجملة الأولى الى مقدمة وقسمين . والمقدمة خاصة بالمفردات وهى فصلان : الأول هو أقسام دلالة اللفظ على المعنى والثانى حقيقة الفصاحة والبلاغة . وتنقسم الجملة الاولى الى قسمين وكل قسم له فصوله . والذى يهمنا فى هذا الكتاب هو مفهومه عن الفصاحة وهو يتوسع فى استعمالها حتى تأخذ مدلول كلمة « بلاغة » .

فصاحة المفرد كجريان الكلمة على مقاييس اللغة وخلوها من الغرابة وكونها عربية مستعملة عند العرب لكن الفخر الرازى لا يعد هذه الشروط الأساس القوى للفصاحة والتى تفسر به ..

أما أبو يعقوب يوسف السكاكى فقد خص القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) للبلاغة وهى عنده ترجع إلى علمى المعانى والبيان ، ويرى أن المعانى والبيان هما مرجعا البلاغة ، ويرى أن هناك أشياء غيرهما ، هى وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها بقصد تحسين الكلام ، وهذه الوجوه هى ما عرف بعلم البديع ، وهى عنده قسمان[٨٥] قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ .

ويرى السكاكى بعد أن يفرغ من مباحث المعانى والبيان أن يتوقف ليوضح معنى كلمة (بلاغة) وكلمة (فصاحة) يقول عن البلاغة : « البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ولها أعنى البلاغة — طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يتراءى له ناراهما ، وبينهما مراتب — تكاد تفوت الحصر — متفاوته ، فى الأسفل تبتدىء البلاغة ، وهو القدر الذى إذا أنقص منه شىء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به فى صدر الكتاب من أصوات الحيوانات ، ثم تأخذ فى التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حد الإعجاز . وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه[٨٦] » .

أما الفصاحة عند السكاكى فهى قسمان : قسم راجع إلى المعنى ، وآخر راجع إلى اللفظ ، والذى يرجع إلى المعنى معناه : « خلوص الكلام عن التعقيد ،

---

(٨٥) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٢٠٠ .
(٨٦) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٩٦ .

ويوضح أبو يعقوب مراده بكلمة « التعقيد » بقوله : والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثّر صاحبه فكرك فى متصرفه ويشيك طريقك إلى المعنى ، ويوعر مذهبك نحوه ، حتى يقسم فكرك ، ويشعب ظنك إلى أن لا تدرى من أين تتوصل ، وبأى طريق معناه يتحصل كقول الفرزدق :

وما مثلهُ فى الناسِ إلا مملّكاً أبو أمِّهِ حيٌّ أبوه يقاربُهُ[٨٧]

أما القسم الثانى من الفصاحة وهو ما يرجع إلى اللفظ فقد حدده السكاكى بحدود هى :

« .. أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها أكثر ، لا مما أحدثه المولدون ، ولا مما أخطأت فيه العامة . وأن تكون أجرى على قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة عن التنافر »[٨٨] .

أما صاحب الطراز « يحيى بن حمزة العلوى » فإنه يفسر الفصاحة تفسيرا لغويا وآخر اصطلاحيا . والتفسير اللغوى لا يخرج عما قاله سابقوه عن ارتباطه باللبن والصبح والشاة ، أما تفسيره الاصطلاحى فإنه يقول فيه : « .. وفى مصطلح البيان : خلوص اللفظ عن التعقيد فى تركيب الأحرف والألفاظ جميعا ، فمتى سلمت اللفظة الواحدة عن تنافر تركيبها ، ولم تكن من قبيل قولنا : « عفجق » ولا من قولهم : « هعخع » وهو شجر ، وسلم تركيب الألفاظ عن التنافر أيضاً كما قيل :

« وليس قرب قبر حرب قبر » .

لأن التنافر فى الأول إنما كان من أجل تقارب مخارج تلك الأحرف ، وحصل

---

(٨٧) مفتاح العلوم ص ١٩٦ ـ ص ١٩٧ .
(٨٨) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٩٦ .

التنافر فى الثانى من جهة تركيب الألفاظ المتقاربة ، لحصل من أجل ذلك عثار فى اللسان ، وتوعر فى المخارج فلأجل ذلك كان متنافرا ، فالألفاظ فى سهولة تركيبها وعثورته وسلاسته ووعورته بمنزلة الأصوات فى طنينها ولذة سماعها ، ولهذا فإنه يستلذ بصوت القمرى ويكره صوت الغراب »[٨٩] .

وواضح من كلامه عن المعنى الاصطلاحى للفصاحة أنه يسمى التنافر تعقيداً، وهذا يخالف ما استقر عليه البلاغيون عندما خصوا التعقيد بفصاحة الكلام وقسموه إلى لفظى ومعنوى كما أنه يفسر التنافر تفسيراً ممزوجا بالخلط ، فيورد تنافر الحروف إلى المخارج ، بينما لا يرد تنافر الألفاظ إليها ، كما أنه يفرق بين الحروف والأصوات .

كما نلاحظ عدم دقته عندما قسم الحروف باعتبار مخارجها وجعلها ثلاثة مخارج :

الأول مخرج الحلق ، والثانى للشفة ، والثالث اللسان . وجعل لمخرج الحلق سبعة أحرف هى ، الهمزة والهاء والألف ، والعين والحاء ، والغين والخاء .

والمعروف أن الألف من الصوائت أو حروف اللين، ووضعها مع حروف الحلق خطأ .

والشفهية هى : « الباء والفاء والميم والواو » .

أما المخرج الثالث عنده فهو حروف اللسان وهى عنده الحروف التى ليست حلقية ولاشفهية[٩٠] .

والملاحظ أن تصنيف الحروف بحسب مخارجها عنده تصنيف غير دقيق .

---

(٨٩) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى جـ ١ ص ١٠٣ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

(٩٠) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى جـ ١ ص ١٠٣ ـ ص ١٠٥ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

أما عن مفهومه للفظة بلاغة وعلاقتها بالفصاحة فإنه يرى أن البلاغة متضمنة الفصاحة على نحو ماصرح الخفاجي ويتضح ذلك من قوله : « اعلم أنه لاخلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لايوصف بكونه بليغا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ ، ولايكون بليغا إلا بمجموع الأمرين كليهما ، فقد صارت البلاغة وصفا عارضا للألفاظ والمعانى كما ترى .. »[٩١] .

ومع أنه يصرح بأنه الفصاحة مختصة بالألفاظ على نحو ما رأينا إلا أنه يعود ويربطها بالمعنى ويقول فى ذلك : « .. الفصاحة مقولة على الأمرين جميعاً ، فتكون مفيدة لهما جميعا فيكون الأمران جميعا أعنى المعانى والألفاظ من مسمى قولنا فصاحة .. »[٩٢] .

ويلح يحيى بن حمزة العلوى على تأكيد أن الفصاحة من عوارض الألفاظ بالإضافة إلى المعانى ، أى أنها باعتبار الأمرين ويؤكد فكرته بوجوه ثلاثة هى:

١ — قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إنّ من البيان لسحرا » والبيان هو الفصاحة .

٢ — أنهم يقولون فى الوصف كلام فصيح ومعنى بليغ ، ولايقولون معنى فصيح فدلّ ذلك على أن الفصاحة من متعلقات الألفاظ وأن فصاحته باعتبار مادل عليه من حسن المعنى ورشاقته ، وفى هذا — فى نظره — دلالة ظاهرة على وجوب اعتبار الأمرين فى فصيح الكلام .

٣ — تفضيل لفظة على لفظة مع اتفاقهما فى المعنى يدل ذلك على أن تعلق الفصاحة إنما هو بالألفاظ العذبة والكلمة الطيبة مثل استحسانهم للديمة والمزنة

---

(٩١) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى جـ ١ ص ١٢٨ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

(٩٢) الطراز ليحيى بن حمزة العلوى جـ ١ ص ١٢٩ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ .

واستقباحهم للبعاق[1] .

وخلاصة رأيه أنه يرى أن الفصاحة تتحقق باللفظ والمعنى معا . كما أنه يجعل الفصاحة متضمنة فى البلاغة كما أشرنا فيما سبق .

ولستطيع أن نستخلص من هذا العرض السريع أن كلمة « فصاحة » وكلمة « بلاغة » قد كثر الخلاف حول مدلوليهما وقد مر ذلك الخلاف بمراحل يمكن أن نلخصها فيما يلى :

المرحلة الأولى : وهى التى استعملت فيها اللفظتان بمدلولهما اللغوى ويبدو ذلك واضحا من التراث الأدبى والدينى وتمتد هذه الفترة حتى نهاية القرن الأول الهجرى .

المرحلة الثانية : وهى المرحلة التى استخدمت فيها اللفظتان بمعنى واحد ، وصارت كلمة « فصاحة » تدل على موضوعات البلاغة ، وظهر ذلك واضحاً عند عبد القاهر الجرجانى ، والباقلانى والرمانى ، وتمتد هذه المرحلة حتى منتصف القرن الخامس .

ونستثنى من هذه المرحلة الجاحظ الذى استخدم كثيراً لفظة « فصاحة » لتدل على موضوعات ومباحث صارت من اختصاص الفصاحة فى عهود استقرارها ، كما استخدم لفظة بلاغة بمدلولها الذى استقر فيما بعد .

كما كثر استخدام كلمة « براعة » وكلمة « بيان » لتكون الكلمات الأربع ذوات دلالات تكاد تكون واحدة وخاصة عند عبد القاهر والباقلانى .

المرحلة الثالثة : وهى المرحلة التى استخدمت فيها كلمة « فصاحة » بمعناها الاصطلاحى وبدأت جذورها عند الجاحظ وتمت على يد ابن سنان الخفاجى ونضجت على يد السكاكى والقزوينى وبهاء الدين السبكى وغيرهم .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٩ .